العولمة
وأثرها في اللغة العربية

علي حسن عساف*

أخذ مصطلح العولمة (Globalization أو Mondialisation) مجالًا واسعًا في النقاشات الفكرية الحادة التي تطرح قضية الوجود الإنساني، خارج البوتقة القومية أو العصبية الجزئية، بغية تكوين مفهوم موضوعي أكثر شمولية وعمومًا وتناسبًا مع ارهاصات الفكر المعاصر.

وإذا كان مفهوم العولمة يهدف إلى استيعاب العالم كقرية كونية متلاصقة الأجزاء متوائمة العناصر، فإن مجالها الاقتصادي يكون الأكثر تناسبًا ونجاحًا في هذا الخضم، وبالتالي فإن مظاهر العولمة تكاد لا تكون محصورة في أمور جزئية بقدر ما تتخطى حدودها الكونية لتشمل مختلف العناصر التي ينصاع في خضمّها الإنسان ضمن حركته الكونية العظمى.

إزاء هذه المظاهر تتقلب اللغة في أفران جديدة، وتأخذ أبعادًا ومرتكزات نائية عن طبيعتها القديمة، فإذا كانت اللغة "مجموعة من الأصوات يعبر عنها كل قوم عن مقاصدهم"، فإنها وبشكل طبيعي تعيش مع الإنسان في حركاته وسكناته في بيئته ومحيطه التي تستجيب لدواعيه ومتطلباته وأبعاد حياته، وتكون أداة مناسبة تربطه بمجتمعه وتجعله متكاملًا مع الطبيعة والمرحلة، والشيء الذي لا يعدُّ عجبًا تعدد اللغات بتعدد الأقوام والشعوب جغرافيًّا وحضاريًّا وتاريخيًّا واقليميًّا.

إن هذا التعدد اللغوي على الصعيد العملي بين الناس، وإن عُدَّ خلاصة الارتكاز الطبيعي الذي يقتضيه البناء والتكوين الجغرافي والدمغرافي للأمة، إلا إنه يشكل عائقًا وحاجزًا من دون بلوغ الانفتاح الحضاري والاندماج الأممي، وبطريقة أكثر دقة هناك تصادمٌ عنيف بين اللغة والعولمة.

فالعولمة تسعى إلى فصل الحدود، ودمج البنود، وتوحيد القضايا الاعتبارية والقوانين والتشريعات وصولًا إلى ربط العالم بعضه ببعض ليكون مشروع أسرة واحدة كونية في مستقبله، وبالتالي فإن هذه الدعوة تصطدم من غير شك مع محدودية اللغة وانحصارها في أمة أو شعب معين، لأن دواعيها ترمي إلى دمج اللغات وتوحيدها ضمن اللغة واحدة، وإذا كان الأمر كذلك، فإن اللغات المتفرقة والمتعددة ينبغي أن تسقط هويتها، وأن تذيب كيانها خدمة لهذا الغرض العظيم.

واللغة العربية واحدة من اللغات الفريدة والعظيمة والغنية بمفرداتها ومعجمها ودلالاتها، نمت وترعرعت في ظلّ حضارات كادت أن تسيطر على العالم، وقد

ازدانت بخصائصها وفضائلها نتيجة لما عُززت به على المستويات الدينية والسياسية والعلمية والأدبية؛ لكنها اصطدمت في الأونة الأخيرة بمجالات من التقلب والإصابات والنكسات على مختلف المستويات نتيجة لصراع العولمة من ناحية، ولصعوبتها وضعف الألسنة وحلول العامية بشكل واسع محلها على صعيد الحياة العملية.

الحضارات والتجارة وحلقات التواصل الدولي، تبغى وسيلة لغوية تتخطى الترجمة والاشارات العابرة، إلى تواصل عملي لغوي مباشر لا تعتريه مشاكل ولا تحطمه اشكاليات، لذا كان مفهوم اللغة الثانية أمرًا لا بدّ منه لمواكبة مظاهر العولمة والتماشي مع مقرراتها، وقد بدأ هذا المشروع يُضعف من اللغة الأم، بل ربما يفضل تلك اللغة الثانية عليها لهذه الدواعي.

وَلَئِنْ كان هذا الواقع حتميًا، إلا أن اللغات المتفرقة ستحافظ على كيانها لظروف وخلفيات متعددة، أقلّها الحفاظ على التراث والآداب والأديان، وليست اللغة العربية عن ذلك بنائية، إلا أنه بالمقابل لا بدّ للغة الثانية من أن تهيمن على مستوى العالم، لتكون أداة للتواصل ووسيلة تتماشى مع مظاهر العولمة ومبادئها القانونية.

– **أولًا: مفهوم العولمة وأبعادها**

أ– العولمة والانتشار السريع للمعلومات

ب– العولمة وتذويب الحدود بين الدول

ج– العولمة الثقافية والهوية الواحدة

صحيح أن هناك عولمات سابقة مرّت في عصور التاريخ المختلفة، فكانت على سبيل المثال: عولمة يونانية، وعولمة رومانية وعولمة اسلامية، لكن العولمة التي تذاع على كل لسان الآن، والتي تفرض الولايات المتحدة الأميركية فيها سيطرتها وتتحكم في أمور العالم وشؤونه، هي العولمة التي تعود بدايتها إلى الربع الأخير من القرن العشرين، حيث ارتبطت بعدد من التحولات والتغيرات والتطورات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والفكرية.

ونستطيع القول إنها وجه جديد من وجوه تطوير وتوسيع الاقتصاد الذي يرجع منطلقه إلى القرن الخامس عشر، أي إلى زمن النهضة الأوروبية الحديثة، وهنا نتاج ما وفرته التكنولوجيا الحديثة في دائرة وسائل الاتصال والإعلام، كما في وسائل قولبة المنتوجات، من امكانية خلق سوق عالمية واحدة حقيقية تعمل على توفير المنتوجات والمصنوعات نفسها في كل مكان وبأسعار متقاربة، وبالتالي توحيد الاستهلاك وخلق مجالات استهلاكية على نطاق عالمي.

عملية العولمة يقودها ناشطون اقتصاديون، هم كبار مالكي رؤوس الاموال من تجّار وصناعيين ورجال أعمال، وقد كان نشاطهم في السابق محدودًا بحدود الدولة القومية التي ينتمون اليها، أي كانت الدولة تنوب عنهم في عملية التعامل التجاري مع الخارج، وبالتالي كان الاقتصاد محكومًا بمنطق الدولة القومية، أما اليوم فاختلف الأمر، فانتقلت الفاعلية الاقتصادية من يد الدولة إلى يد المجموعات المالية والصناعية الحرة (مع مساعدة دولها) وذلك عبر شركات ومؤسسات متعددة الجنسيات،

والغاية من ذلك هي القفز على حدود الداخل والخارج والسيطرة بالتالي على المجال الاقتصادي والمالي(1).

من هنا نفهم أن العولمة بالدرجة الأولى هي تركيز النشاط الاقتصادي على الصعيد العالمي في يد مجموعات قليلة العدد، متمثلة ببعض الشركات الكبرى العابرة للحدود والقارات، وهذا ما ينتج عنه تهميش الباقي أو إقصاؤه بالمرة.

العولمة بمفهومها الحالي تعني أن يعيش العالم في قرية صغيرة يتناسى من خلالها الحدود التي كانت تفصل الدول بعضها عن بعض، مع وجود مصلحة عامة يسعى إليها كل الأفراد، وبذلك فقد كانت بداية انطلاقة العولمة هي إزالة العراقيل والعقبات التي تحول دون تلاحم العالم، كحرية التجارة الخارجية وتنقلها بين الدول دون قيود، وإزالة الضرائب المفروضة على السلع الأجنبية، فبداية كانت العولمة اقتصادية، ثم تعددت تجلياتها لتزحف على الجوانب الاجتماعية والثقافية والدينية، وكل ذلك بدوافع سياسية تحمل في جنباتها الكثير من الهيمنة والسيطرة والتسلط.

وإذا أردنا أن نقترب من صياغة تعريف العولة، فلا بدّ من الالتفات الى النقاط التالية:

أ– **العولمة والانتشار السريع للمعلومات:** إن العولمة تسعى إلى اختزال العالم الذي نراه واسعًا شاسعًا في قرية كونية صغيرة واحدة، فإن وسائل الاتصال التي هي من أهم وسائل العولمة تعمل بشكل دؤوب على دمج ووصل وربط أقسام العالم وأقطاره، فقربت المسافات، وجعلت البعيد قريبًا، فقربت المجتمعات البشرية بعضها من بعض وشجعتها على الحوار والتواصل فيما بينها، وساهمت في قيام التعاون في شتى الميادين والمجالات(2).

هذا العالم المترامي الأطراف والمتعدد الأجزاء، تقلص بفضل وسائل المواصلات والاتصالات، حتى أصبحت الكرة الأرضية بمثابة الحي الصغير الذي لا يخفى على سكانه أي شيء مما يجري في محيطهم. إن تحول العالم الشاسع إلى قرية اتصالية صغيرة قد تم بواسطة العلم والتكنولوجيا.

عمقت التطورات العلمية والمعرفية الكبرى التي شهدها القرن العشرون الوعي بعالمية العالم وبوحدته، ودفعت الإنسان وما زالت تدفعه إلى التخلي تدريجيًا عن محليته وتقليديته، وربطه ببعديه الإنساني والعالمي، فأصبح الإنسان الآن يشعر بأنه جزء من عالم أعم وأشمل من عالمه الخاص، وأصبح يشعر بأن مشاكل الإنسان هي مشاكل عالمية، فالحياة بكل مشاكلها وكل قضاياها المختلفة، تجمعها قضايا عالمية وإنسانية مشتركة تبحث عن حلول عالمية مشتركة.

لقد أصبح العالم قرية اتصالية مترابطة أشدّ الترابط، انه عالم مترابط سياسيًا واقتصاديًا وثقافيًا بحيث لم يعد هناك جزء بمنأى عن التفاعل والتأثير بالأجزاء الأخرى، وأيّ خلل أو تطور في أيّ جزء من العالم ينتشر في جميع أنحاء النظام السياسي، والاقتصادي، والاعلامي العالمي في دقائق معدودة(3).

أطراف الأرض يقترب بعضها من بعض بواسطة الكابلات الأرضية والبحرية والألياف الضوئية وأشعة الميكرويف ودوائر الأقمار الاصطناعية، لقد وصل الأمر إلى الحد الذي توقع معه بعضهم حدوث (أزمة مرور) للأقمار الاصطناعية التي تزاحمت في ارتفاعها الثابت بالنسبة إلى الأرض بصورة يُخشى معها تداخل موجات ارسالها.

لقد أصبح البعيد وشاسع البعد متاحًا في متناول أيدينا نشاهده ونحاوره ونتجسمه، نؤثر فيه ونتأثر به، وهكذا أصبح بإمكاننا القيام بالعديد من الأنشطة والأعمال عن بعد: التسوق عن بعد، والاستشعار عن بعد، والتعامل مع البنوك عن بعد، والتعلم عن بعد... الخ. وهناك ما نسميه "التسامر عن بعد"، فإن إحدى شركات الاتصالات تقوم بتقديم خدمات المقهى الالكتروني، لتجمع البشر من مواقع شتى ليتسامروا وجهًا لوجه فيما شاء لهم من حوار جاد أو عابث.

إن تكنولوجيا الاتصالات تحرر الإنسان تدريجيًا من قيود المكان، بل وتوسع دائرة وجوده ليبدو وكأنه موجود في أكثر من مكان في الوقت نفسه.

هذه هي العولمة وهذا هو الانتشار السريع للمعلومات، فإن الاندماج المثير بين تكنولوجيا الكمبيوتر وتكنولوجيا الاتصالات، أخذ حيزًا يصل إلى حدّ الدهشة الكبرى، حيث انه يمكن لنظام آلي للترجمة الفورية أن يقيم دائرة حوار بين مشترك في طوكيو يتحدث باليابانية ومشترك آخر في واشنطن يتكلم الإنجليزية، يشاركهما الحديث آخر في برلين يتكلم الالمانية يقيم هذه الدائرة من الحوار دون حاجة أي منهم إلى التكلم بلغة الآخر، إنما يقوم هذا النظام الآلي، بنظم الترجمة الآلية متعددة اللغات، ونظم الكلام وفهمه وتوليده آليًا، كما اننا من خلال هذا الاندماج المثير يلبي على سبيل المثال رغبة أسرة لبنانية في بيروت، لم تجد ما يحلو لها من أفلام في محلات الفيديو القريبة، فيمكنها الاتصال بمكتبة الأفلام المركزية في لوس أنجلوس مثلًا، لترسل لهذه الأسرة واحدًا أو أكثر من أحدث "أفلامها عبر شبكة نقل البيانات فائقة السرعة، لتصل إلى منزل هذه الأسرة في بيروت في ثوان قليلة.

إن تكنولوجيا المعلومات كسرت حواجز المكان الزمان، وغيرت الاتصالات وجه العالم، وما نسمعه اليوم عن الكونية والعالمية ما هو إلا صدى من آثارها العديدة، إنها تكنولوجيا المعلومات التي جعلت من فرق التوقيت بين بورصة طوكيو وبورصة نيويورك فرصة يستثمرها البعض ماديًا، وجعلت من سرعة تحويل النقد من بنك إلى آخر مؤشرًا مهمًا لقياس الأداء الاقتصادي للدولة.

ب- العولمة وتذريب الحدود بين الدول: لا يمكن أن يكون هناك تعايش حقيقي بين العولمة والحدود، حيث أن الحدود تهتم بالخصوصية، ومن ميزاتها المحافظة على مظاهر السيادة التي تعدّ من أهم مقوماتها ومرتكزاتها، الحدود تجسيد للسيادة على المكان الذي أقيمت عليه الدولة المستقلة التي تتمسك بحقّ سيادتها

الكاملة ضمن حدودها المعترف بها دوليًا. العولمة تتجاوز خصوصية الدولة وسيادتها، وتنتقل بالناس إلى العمومية، وتحاول بكل طاقاتها تخطي سيادة الدولة على المكان أو إضعاف هذه السيادة بالحد الأدنى، وذلك من خلال استخدامها لوسائلها وأجهزتها المتنوعة التي تتخطى بها الحدود والقفز من فوقها والتعدي على خصوصيات المكان، واختراقه، وغزو ثقافة شعبه وحضارته وفرض ثقافة أخرى عليه، مما قد يضعف من انتمائه الوطني والقومي ويسهم في تفكيك عناصر هويته ومكوناتها.

العولمة ترجمة لكلمة (Mondialisation) الفرنسية التي تعني جعل الشيء على مستوى عالمي، أي نقله من المحدود المراقب إلى اللامحدود الذي ينأى عن كل مراقبة، والمحدود هنا هو أساسًا الدولة القومية التي تتميز بحدود جغرافية وبمراقبة صارمة على مستوى الجمارك، تنقل البضائع والسلع اضافة إلى حماية ما بداخلها من أي خطر أو تدخل خارجي، سواء تعلق الأمر بالاقتصاد أو السياسة أو بالثقافة.

أما اللامحدود فالمقصود به "العالم" أي الكرة الأرضية، فالعولمة إذن تتضمن معنى إلغاء جدول الدولة القومية في المجال الاقتصادي، وترك الأمور تتحرك في هذا المجال عبر العالم، وداخل فضاء يشمل الكرة الأرضية جميعها، ومن هنا يطرح مصير الدولة القومية، في زمن تسوده العولمة بهذا المعنى[4].

هدف العولمة ليس إزالة الحدود فقط إنما تحطيم جميع الحواجز والحدود التي قد تتمثل في القوانين والتشريعات وهي مظهر من مظاهر الحدود وشكل من أشكالها، والغاية من هذا كله اتاحة الفرص للسلع والبضائع ورؤوس الأموال والبشر ووسائل الانتاج للعبور الى أي مكان بيسر وسهولة، تحت عناوين مختلفة منها حرية التجارة. وهذا ينطبق على بعض - أنشطة ما يسمى بالشركات المتعددة الجنسية أو القومية، إن الحدود هي تلك الأجزاء المتباينة المتنوعة التي ترسم الخرائط الجغرافية للدول بناء لبعض المقاييس والمعايير التي تم بواسطتها هذا الرسم. أما العولمة فإنها عملية ربط ودمج لهذه الأجزاء وتعمل على هذا الموضوع بأهم وسيلة لديها، وهي وسائل الاتصال، التي تقوم على ربط أجزاء العالم وأبعاده، فقربت المسافات وجعلت البعيد قريبًا[5]، فأصبحت المجتمعات الإنسانية المتفرقة بالأرض قريبة من بعضها من البعض، يسودها الحوار والتواصل فيما بينها، وساهمت وسائل الاتصال في قيام تعاون في شتى الميادين والمجالات، ولم يكن هدفها إلغاء الحدود أو التعدي عليها، لم تكن وسائل الاتصال التقليدية تقفز فوق الحدود، وانما كانت تجتازها بإذن من يملك هذا الإذن.

لكن العولمة سخّرت وسائل الاتصال كلها، كالمحطات الفضائية والانترنيت لتقفز بواسطتها فوق الحدود وتجتازها من دون إذن، وأصبح العالم كله مكشوفًا، فلا لدولة مهما كانت قدرتها، أن تمنع تسرب الأفكار والمعلومات عبر حدودها أو مؤسساتها المحلية، فاندمج العالم اتصاليًا واعلاميًا

واقتصاديًا وثقافيًا بصورة تخطت سيادة الدولة وسلطتها على ما يجري داخل حدودها، وأصبح الإنترنيت الذي يسمى شبكة الطرق السريعة للمعلومات يسيطر على العالم ويهيمن عليه[6]، وها هي الولايات المتحدة الأميركية التي لا قطب آخر ينافسها، أصبحت القوة الأعظم في العالم، تفرض سلطانها ونفوذها على جميع الأقطار سياسيًا وعسكريًا واقتصاديًا وأمنيًا وثقافيًا، من هنا يرى كثيرون أن العولمة هي "أمر هدفها تطبيق النموذج الأميركي على العالم رضي هذا العالم أم لم يرض.

العولة إذن تهدف إلى اختصار العالم الذي نراه واسعًا مترامي الأطراف، في قرية كونية صغيرة، يخضع لسلطة واحدة، تتبنى ثقافة واحدة ونظامًا عالميًا واحدًا.

ج- العولمة الثقافية والهوية الواحدة:

الهوية هي الشخصية التي تتميز باستقلاليتها عن غيرها وتسمى الهوية الفردية، أما ما يميز الجماعة عن الجماعات الأخرى، فهي هوية جمعية، أن ما يميز الأمة عن غيرها من الأمم، فهي الهوية الوطنية، إن الهوية الثقافية والحضارية لأمة من الأمم، هي التي تميز حضارة الأمة عن غيرها من الحضارات، وترسم لها الشخصية الوطنية المشتملة على صفاتها الجوهرية.

إن الهوية تعبر عن اعتزاز الإنسان بشخصيته وانتمائه لجماعته ولوطنه ولأمته، وبطبيعة الحال، فإن الفرد يستمد ثقافته من الأسرة التي نشأ وتربى فيها، وتلقى منها عقيدته وأخلاقه وسلوكياته، وتُصقل هذه السلوكيات في تربيته المدرسية التي يتلقى فيها العلوم والقيم والمبادىء التي تكوّن شخصيته الخاصة المستقلة عن غيرها من الشخصيات، وتجعل له إطارًا ثقافيًا حرًا يعكس ثقافة شعبه وأمته ويتفاعل مع الثقافات الأخرى من منطلق التثاقف الإيجابي والبنّاء.

لكن ما نراه من تجليات ثقافية العولمة تبدو في كثير من الحالات غير واضحة المعالم، برغم أنها أشدّ خطورة على ثقافة الأمة وهويتها وانتمائها القومي، إذ ان العولمة تسعى بكل وسائلها لتعطيل العقل عن التفكير واستئجاره ومحو كل ما يحمله من ثقافة واستبدالها بثقافة أخرى غريبة عن الأمة مما يولد إنقاصًا في شخصيتها ويجعلها منقسمة على نفسها، هذا ما نستطيع تسميته بالغزو الثقافي الذي هو أشدّ خطرًا من الغزو العسكري، لأنه يظلّ قائما في عقول الناس، فيجرهم إلى الانحلال وإلى نوع من اللامبالاة، بالإضافة إلى التشويه النفسي عن طريق ثقافة الصورة التي حلت محل الثقافة المكتوبة، إذ تمكنت العولمة من استقطاب الأجيال الصاعدة في المجتمع والصورة اليوم هي المفتاح السحري للنظام الثقافي الجديد، نظام وعي الإنسان بالعالم، إنها المادة الثقافية الأساس التي يجري تسويقها على أوسع نطاق جماهيري.

إن الصورة أكثر إغراء وجذبًا وأشد تعبيرًا وأكثر رسوخًا والتصاقًا بالعقل... والصورة لا تتطلب مهارة ومعرفة للغة، لأن الصورة لغة عالمية تفهمها جميع الأمم والشعوب والبشر كافة، سواء كانوا جهلة او متعلمين.

إن الدولة المهيمنة تسعى لتخضع بثقافتها، ثقافة الدول وتصبغها بألوانها كي تكون الهوية واحدة هي هوية تلك الدولة المهيمنة التي تعتمد عليها الدول وتتبنى قيمها وأفكارها ومعارفها وعاداتها، وتشيع نمطًا عالميًا موحدًا للسلوك الاستهلاكي، وهذا يتجلى في الأزياء والملابس والأطعمة والأشربة المعتمدة في الدولة المهيمنة التي افتتحت لها مكاتب ووكالات في كثير من أقطار العالم[7].

تمكنت العولمة على سبيل المثال من القضاء تقريبًا على الثوب الخليجي في دول الخليج العربي، حتى أخذت العديد من هذه المجتمعات بالاستعانة بالملابس الغربية ذات الدلالة الرافضة للتقاليد والأعراف. دخلت العولمة على الثقافة الأصلية فأخذت الأخيرة تستعير العديد من العناصر الثقافية في الثقافة الأخرى، وتلك العملية تؤدي إلى زوال عدد كبير من عناصر الثقافة الأصلية، مما يؤدي إلى احتلال الثقافة الأخرى مركزًا متقدمًا لشعوب الثقافة الأصلية، إن تلك العملية التي يقوم بها مجتمع من المجتمعات ويستورد كل ما هو جديد من ثقافات وحضارات أخرى دون الحصول على التكنولوجيا العملية، يؤدي إلى وجود تبعية ثقافية وحضارية موجهة، فتتعطل الارادة الوطنية لهذا المجتمع التابع ثقافيًا، ويفقد السيطرة على إعادة تكوين ذاته.

تحت شعار الثقافة العالمية والهوية الواحدة، يحصل ما ذكرنا أعلاه، ويتم احتكار الشركات الكبرى والدول القوية لعناصر الانتاج ووسائله في بلدانهم والبلدان الأخرى، مما يؤدي إلى زيادة في الوضع التبعي، والعولمة تؤدي إلى زيادة الاستهلاك في مقابل انخفاض الانتاج. فيما يلي بعض العناصر الثقافية الأساسية التي كان للعولمة الأثر الواضح عليها، وذلك برز من خلال التغيير الاجتماعي في المجتمعات الإنسانية وبالأخص العربية منها.

1- التقاليد والأعراف:

إن العولمة بمفهومها السلطوي، استطاعت أن تؤثر على العادات والتقاليد والأعراف، فعن طريق بثّ الأفكار والبرامج التي تعبر عن سخط تلك المجتمعات على كل ما هو قديم قدم البشرية، انتقلت من العائلة المتماسكة إلى جوهر العائلة المنفصلة، والانتقال من نمط البيت التقليدي إلى نمط البيت العصري، أي هدم بعض العادات والتقاليد والأعراف التي كانت متبعة في السابق، كحرمة المرأة في التبرج والعمل الحر ومنع الغرباء من الدخول إلى البيت الذي يتواجد فيه نساء، أما الآن فنرى أن الأخ يصطحب صاحبه وأخته إلى البحر أو إلى المطعم وغيره.

كذلك أصبحت اللغة المميزة لأي مجتمع من المجتمعات، اللغة ثانوية بالمقارنة مع اللغة الإنكليزية والفرنسية، ذلك لأن مفهوم العولمة، مفهوم غربي مصطنع لخدمة مصالحهم الغربية.

2- القيم والأخلاق:

النظام الأخلاقي الذي يحقق العدل والمساواة وينظم العلاقة بين الدين والحياة من جهة، والدين والفرد من جهة ثانية،

أصبح مهددًا في ظلّ ثقافة العولمة، إذ أن الحديث عن عولمة الاقتصاد وعولمة الثقافة، يتبعه الحديث عن عولمة الأخلاق، أي أن تقوم الجماعات البشرية باتباع نظام معين للأخلاق يكون مستقلًا عن كل من العلم والسياسة بحسبان أن موضوعات الأخلاق تختلف عن موضوعات العلم، وذلك ما يؤدي إلى زوال الخصوصية الأخلاقية لكل مجتمع، كما أن الحديث عن الأخلاق، يتبعه أيضًا الحديث عن الدين، حيث تناقض العولمة بشكل واضح، التسامح بين الأديان، وجوهرها يكمن في المصالح التي تسعى إلى تحقيقها فقط.

3- الهوية:

إن العولمة تحارب الهوية وترى أن الحديث عن وجود هويات مختلفة في العالم يؤدي إلى مزيد من الانقسام، لذلك تسعى إلى محو هويات الأمم وثقافاتهم وتسييهم إلى نظام واحد، ومنحهم ثقافة واحدة، لقوة دولية واحدة تهيمن على العالم. (موضوع الهوية نتحدث عنه في القسم الثالث من هذا البحث).

بناءً على ما تقدم نعتقد أن الهوية الثقافية للأمم والشعوب بمنزلة الرصيد التاريخي الذي يستمد منه الأفراد انتماءهم، وتتشكل بموجبه شخصيتهم الفردية والجمعية والوطنية، التي تظل مصدر عزتهم وعنوان كرامتهم واستقلالهم، ومنها يستمدون تطلعاتهم وآمالهم المستقبلية، ولا شك في أن الأخطار التي تواجه الأمم والشعوب تدفعها إلى التمسك بهويتها وثقافتها، وتدافع عن نفسها، بل وتحارب الأخطار تحت رايتها.

- ثانيًا: اللغة العربية عبق الماضي وتحديات العصر

أ- اللغة العربية عبر العصور

ب- اللغة العربية بين الأزمة والاتهام

ج-اللغة العربية ووسائل الاتصال الحديثة

إن اللغة العربية وأن طرأ عليها بعض التغيير والتطور، فما هي إلا امتداد للغة الأجداد ولغة التراث، ولا بدّ من الاتصال الدائم بالتراث والبحث عن نتاجات الأجيال الماضية، الأمر الذي يؤدي إلى بناء ثقافة أصيلة ثابتة الأصول ممتدة الجذور، كما يؤدي إلى زيادة تعرّف محتوياتها وأسرار التراث، ومن ثم يؤدي إلى زيادة الاعتزاز بهذا التراث وبلغته، هذه اللغة، التي هي أداة الأدب والعلم والتخاطب، مرت بالعديد من أزمنة المخاض والمعاناة الروحية والذهنية حتى اتضحت أبعادها النفسية والاجتماعية والجمالية.

رافقت اللغة المجتمعات البشرية منذ الأزل؛ في البداية كان يعتمد الإنسان على الإشارة والإيحاء في تصريف أموره، بدلا من لغة اللسان، ثم ارتقت قدرة النطق عند الإنسان، وتطورت تطورًا كبيرًا، فاكتسبت بعدًا نفسيًّا، وصارت تعبر عن مكنونات الإنسان وأوهامه وانفعالاته بأشكال مختلفة، إلى أن اكتسبت بعدًا فنيًّا، هكذا تطورت اللغة من الإشارة والرمز والتجريد إلى القيام بمهمة الإعلام والأخبار، فكان الكلام سابقًا للكتابة التي لم تعرف إلا بتطور الحياة وظهور الحضارات، فالكتابة ملازمة للحضارة وقد ولدت معها، لأنها تمثل العلاقات الموضوعية في المجتمع.

واللغة العربية - كائن حي- عبر تاريخها الطويل، لم تمض على وتيرة واحدة، بل كثيرًا ما شملها التطور في مختلف فروعها وفنونها، وكثيرًا ما واجهت الهجمات والتحديات، فكان يقسو عظمها ويشتد لحمها نتيجة التراكمات الاستعمالية على مدى التاريخ حينًا، وتصاب بحالات ضعف ووهن نتيجة للضعف الذي تعاني منه الأمة العربية حينًا أخر، على الرغم من أن العرب ورثوا أفصح لغة.

وللاطلاع على اللغة العربية عبر مسيرتها التاريخية وحتى عصرنا الراهن بطريقة مختصرة جدًا، يجدر بنا إلقاء الضوء على النقاط التالية:

أ- **اللغة العربية عبر العصور:** لم يكن العرب فـي العصر الجاهلي يعرفون من علم اللغة سوى الشعر الذي يُعدّ المرجع الثاني للغة العربية بعد القرآن الكريم، بل لم يعرفوا سوى الشعر المسجّع، بعده عرفوا الحكيم الرصين الذي منه المعلقات السبع أو العشر، كانت اللغة العربية قبل الإسلام مفككة العرى متعددة اللهجات، قد تستعمل قبيلة كلمة لا تستعملها القبيلة الأخرى، إلى أن جاء الإسلام، فأخذ علماء اللغة القدامى يعتمدون في تأصيلهم الاستقامي والبنائي للكلمة العربية على الأعراب الرواة من مختلف اللهجات والقبائل والبيئات اللغوية، لكي تتوحد دلالات اللغة في إطار قاموسي واحد نجح في المؤاخاة بين المنطوق والمكتوب، وتحولت اللهجات التي كانت لغات، إلى بنية لغوية مستقلة.

ولما بلغوا مرحلة من الرقي الاجتماعي عمدوا الى تطوير لغتهم، وأخضعوها لقواعد تنظيمية، بعد أن شعروا بأن لغتهم- إذا بقيت على ما هي عليه- تعرضت للفساد والضياع، وبعدما جمعت اللغة، عمد علماء الصرف والنحو ففلسفوها.

أما الكتابة التي كانت تتميز بالبساطة والإيجاز فقد تطورت وتعددت طرقها وأغراضها، وتأنقت ألفاظها، ورتبت، حتى أصبحت فنًا خاصًا له نظمه وقواعده، ونشأت على اثر ذلك دواوين الكتّاب الكبار في النثر الأدبي، أما في العصر العباسي، ونظرًا للتطور الذي أصاب المجتمع في حينه، فشعروا أن اللغة العربية باتت بحاجة إلى تطوير وتهذيب وتوسيع وضبط خصوصًا بعد أن استقر العرب في البقاع التي افتتحوها، وخالطوا الأعاجم واحتكوا بهم، وأصبح هؤلاء يشكلون مجموعة لا بأس بها من سكان البلاد، حينها أخذت اللغة العربية تتأثر بالمفردات والتراكيب الأعجمية، ولجأ العرب إلى اشتقاقات جديدة استدعتها التطورات الطارئة، وكان من الطبيعي أن تزحف العجمية، وما يتبعها من ركاكة واضطراب، إلى الشعر، فأخذ الشعراء يبتعدون من الأوزان العربية التي وعتها الأذن العربية، حتى هبّ بعض رجال اللغة، وأولهم الخليل بن أحمد الفراهيدي، إلى وضع الأوزان الشعرية وضبطها.

وأما الآن في عصرنا الراهن الذي نشهد فيه تطورًا أفرز تغيرًا في العادات والتقاليد، والأنظمة والقوانين، والدول والشعور، وظهرت مدنية كبيرة وحضارة عظيمة، في

عصر العلم والتكنولوجيا والاختراع، تغير كل شيء حتى الإنسان تغير.

وتبعًا لذلك كان لا بدّ من تأثر اللغة العربية بهذه التغييرات، فكان الشعر العربي الحديث، الذي انضم إلى ركب التطور، بمختلف أنواعه وأشكاله وتياراته، فأخذ بالانفتاح على الكون والدعوة إلى الجديد والتجديد، والتحرر في الشعر من قيود الوزن والقافية، وهكذا تجاوز الشاعر الحديث حدود القبيلة، وصار يفكر تفكيرًا كونيًّا، ويحسّ إحساسًا كونيًّا، وخرج عن الموالاة إلى المعارضة[8].

أثر التطور في عصرنا على الشعر والنثر المنبثقين عن دوحة اللغة العربية، التي باتت مهددة في عصر المعلومات والتكنولوجيا، وأصبحت مثلنا تمامًا مستهلكة تعتمد على الاستيراد والتسهيلات المربية المعطاة للمستثمرين المستوردين في سياق اجتماعي واقتصادي وسياسي نزع قوامة الكلمة من الشعر والكتّاب والمثقفين ورجالات المجمع اللغوي.

لذلك يجب أن لا نخلط بين حقيقة هذا التهديد، وبين قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ (الحجر: 9) إن وعد الله لنا بحفظ النصّ الشريف لا يعفينا من مسؤوليتنا صون اللغة نفسها وحمايتها ضد ما يتهددها[9]، ويجب أن نثبت للحاقدين الذين يقولون "إن اللغة العربية لا تصلح لهذا العصر – أن اللغة العربية أثبتت صلاحها لاستيعاب معطيات الحضارات كافة – عبر تاريخها الطويل- يقول بروكلمان (Carl Brockelmann):

"بفضل القرآن بلغت اللغة من الاتساع مدى لا تكاد تعرفه أية لغة أخرى من لغات الدنيا، والمسلمون – جميعًا – يؤمنون أن العربية هي وحدها اللسان الذي أحلّ لهم أن يستعملوه في صلواتهم، وبهذا اكتسبت العربية – منذ زمن طويل – مكانة رفيعة فاقت جميع لغات الدنيا الأخرى التي تنطلق بها شعوب إسلامية"[10].

ب- اللغة العربية بين الأزمة والاتهام:

اللغة العربية ليست مجرد وعاء الفكر أو أداة التواصل بل هي التي تشكل رؤيتنا وسلوكنا، وعليها يتوقف أداؤنا الاجتماعي الشامل، لذا لا يجوز أن نفصل بين أزمات واقعنا وأزمة لغتنا، أساس الداء في أزمتنا الثقافية وتخلف تعليمنا وصعوبة تحقق رغباتنا في قيام تكامل عربي، وأزمتنا اللغوية لم تترك جانبًا منها إلا تناولته، وشواهدها كثيرة وعميقة: فجوات في نظم أسس التنظير لها، قصور في المعجم وعزوف الغالبية عن استخدامه، تخلف نظم تعليم العربية وتعلمها، وترخص أهلها في قواعد استخدامها الصحيح، ناهيك بالفوضى المفزعة في ثنائية الفصحى والعامية وغياب لغة قومية عربية خلاف تلك التي نتداولها في محافلنا الرسمية.

وأزمتنا اللغوية، تعوق فهمنا لتراثنا، ونماء أدواتنا الفكرية وقدرتنا على اللحاق بركب العلم المنطلق، وهي بلا شك تقلل من فاعلية حوارنا مع أنفسنا ومع الآخرين، وتقاعسنا اللغوي ساحة يتبارى فيها الجميع، سواء جامعاتنا التي مازال معظمها لا يؤمن بأهمية تعريب العلوم كخطوة لا بدّ منها

لتوطين العلم في بيئتنا ووجداننا، ونظم تعليمنا التي جمدت اللغة وضخمت من حفظ القواعد على حساب مهارات الاستخدام[11].

التحدي القادم يخصّ اللغة العربية، ومدى قدرتها على ربطنا بالمعرفة على تنوع أشكالها ومصادرها. فهل أعددنا لغتنا العربية للتحديات المستقبلية بحسبان أن إمكانات أي اللغة كامنة فيها، وهل سعينا إلى تشجيع الدراسات المعنية بتطوير اللغة العربية وقواعدها بحيث تتاح لها تراكيب وبنى أكثر مرونة لإفراز المعارف واستيعاب الوافد وما سوف يستجد؟

وهنا نسأل السؤال الذي سألته "كاميليا صبحي": هل درسنا التجربة السورية في تعريف العلوم وتدريسها باللغة العربية دراسة منهجية موضوعية للوقوف بصورة علمية واضحة على نتائجها الإيجابية والسلبية لاستخلاص خطة مستقبلية تفيد الوطن العربي في هذا المجال؟ إن لم نول لغتنا الاهتمام الواجب فسوف تتداعى الدعامة التي تقوم عليها أمة بأكملها ولا يمكن أن ننتظر من الآخرين أن ينوبوا عنّا في تطويرها والحفاظ عليها فهذا آخر ما يسعون إليه...

أما مجامعنا فشاغلها الرئيس هو أزمة المصطلح مما يلهيها عن أمور لغوية أخرى لا تقل أهمية عنه، وهناك شبه انفصال بين المجامع وجماعاتنا اللغوية، وكأن هذه المجامع قد نسيت أو تناست أن اللغة هي وليدة الاستخدام الفعلي وقد أفلتت من قبضة الكهنوت اللغوي الذي يستتر وراء دعاوى الطهارة اللغوية والمحافظة على التراث، وهكذا وعلى حين نرى غيرنا ينجح في إحياء لغاته المندثرة، أمثال الإيرلنديين وهنود أمريكا الحمر، وليس بعيدًا ما فعله اللغويون اليهود في القرن العشرين حينما تمت أكبر عملية لغوية لإحياء العبرية التي ماتت قرونًا على قاعدة جديدة لا تعترف بالفصل بين المنطوق والمكتوب[12]، ونحن لا نتوانى عن فرض الجمود على لغتنا الحيّة، نحرمها من حقّها في الاحتكاك اللغوي والتفاعل الواقع وعبقرية جماعتها في ابتداع الجديد من الألفاظ والمعاني والتراكيب هذا من ناحية. من ناحية ثانية، فإن لغتنا العربية تتعرض لرزم من الاتهام بالقصور المنهجي والفقر الفكري، يرى إيلي شوبي[13] في هجومه على اللغة العربية أنها غير قادرة على استيعاب الأفكار المجردة، وإن هي فعلت ذلك فمن الصعب استخدام اللغة للتعبير عن ذلك نظرًا للطبيعة الصارمة للنحو العربي، فوجود مئات المترادفات، ومستويين لغويين، والغموض يؤدي إلى الحد من المرونة أو الليونة اللغوية، ثم الفكرية في عملية التعبير والصياغة. ناسيًا أو أنه لم يطلع على تاريخ اللغة العربية، وما حملته من عقيدة وأدب وفكر وفلسفة، وأن اللغة العربية قد حفظت الكثير من المعارف في الفلك والرياضيات والفلسفة وغيرها. وبالمقابل تُرجم الكثير من علوم العرب والمسلمين التي سطرت في اللغة العربية إلى اللغات الأخرى بدقة وشمولية.

وهذا باتاي الذي يركز على بعض الصفات البلاغية التي يعدّها قبيحة هي في

الواقع موجودة في اللغات الأوروبية، على أي حال فإن هذا الباحث يعطي أهمية أكثر لموضوع الزمن في اللغة العربية، وذلك بادعائه أن اللغة العربية تفتقر إلى نظام تفصيلي للزمن في الفعل العربي مغاير للزمن في اللغات الأوروبية، وهذا بدوره يؤدي إلى نتائج فكرية سلبية كالافتقار إلى الدقة والوضوح في الكلام العربي، فالعالم اللغوي إبراهيم السامرائي يرفض ما يزعمه المستشرقون بخصوص الزمن قائلًا ليس صحيحًا ما يقوله جماعة من الباحثين الأعاجم من أن الزمن ليس شيئًا، أصيلًا، وأن اقتران الفعل العربي به، حديث النشأة"[14].

إن ما يراه باتاي من نقص في اللغة هو في الواقع نقص في التشخيص والإطلاع عنده، فاللغات البشرية جميعها ينظر إليها على أنها لغات كاملة، ولقد أصاب مالك المطلبي كبد الحقيقة عندما أكد أن "وجود نقص في اللغة هو منطق غير صائب، إذ لا يوجد أبدًا نقص لغوي أو تفوق لغوي، بل تنظيم لغوي[15]، هذه واحدة من الحقائق التي يقررها علم اللغة الحديث.

أما لافين[16] فإنه يشكك في قدرة اللغة العربية على أن تكون أداة لإقامة التفكير المنطقي نظرًا – على حد زعمه – إلى طبيعة نظامها اللغوي، ثم يذهب هذا الباحث الى اتهام اللغة العربية بعدم قدرتها على استيعاب الكلمات الأجنبية، نظرًا لإصرارها على استخدام النظام الصرفي العربي على حدّ زعمه أيضًا. لم يلتفت لافين إلى أن اللغة العربية وسعت الكثير من المصطلحات الأجنبية قديمًا وحديثًا بعربنتها أو ايجاد المصطلحات المرادفة للمصطلحات الأجنبية.

فالنظام الصرفي العربي يعدّ مصدرًا مهمًا من مصادر اثراء اللغة العربية إذا استخدم بطريقة فاعلة وتوليدية، وردًا على بعض المفكرين العرب الذين تأثروا بالطروحات الغربية تجاه اللغة العربية والذين يرون أن اللغة العربية "محنطة" منذ العصور الأولى، وجامدة لا تواكب الجديد في العصور التالية، ومنهم من قال: إن اللغة هي الفكر، وأن التغيير في أي فكر لا بدّ أن يسبقه تغيير مهم في طبيعة اللغة التي يستعملها أهل ذلك المجتمع حيث يوجد الفكر، فإيجاد ثورة فكرية يستلزم إيجاد ثورة لغوية أولًا.

كيف يصدق القول الأول على لغة عالمية تبوأت مركزًا مهمًا ومرموقًا في الماضي والحاضر، وحملت فكرًا وأدبًا وعلمًا وفلسفة على مدى قرون طويلة؟ هذا من ناحية، من ناحية ثانية، فهل اللغة العربية التي نستعملها اليوم هي نفسها التي كانت في الجاهلية؟ فالأصوات والقواعد النحوية لم يطرأ عليها شيء لكن ماذا عن المفردات وأساليب التعبير؟

إنها بلا شك واكبت كل عصر عاشته اللغة العربية ووسعته بنظامها ووسعها بكل مميزاته وتفرده عن غيره. أما بالنسبة إلى القول الثاني، فإننا نذكر صاحبه حول واقع اللغة العربية قبيل الثورة الفكرية الإسلامية التي عمّت الجزيرة العربية مع ظهور الإسلام فهل فجّر العرب اللغة أولًا، لإيجاد التحولات الفكرية المعروفة[17]" طبعًا لا.

اللغة العربية إذًا، هي لغة موحّدة، ولأنها كذلك فقد عرفت ما عرفته عبر تاريخها من هجمات ومحاولات متواصلة ومستمرة للنيل منها والقضاء عليها، وما زالت عرضة لكل أساليب الحروب التي عرفتها البشرية على مرّ تاريخها، وكل ما تميزت به الحروب من فنون وخطط وخداع، كان للأمة العربية نصيب وافر، ولم تكن لغة هذه الأمة إلا أحد أهم الأهداف التي وضعت على رأس الأولويات في استراتيجيات الشعوبيين القدامى والجدد، لذلك يجب أن نكون على مستوى المواجهة والتحدي، كي لا نخسر أصالتنا ووجودنا ومصيرنا، لأن الأمة التي تهمل لغتها أمة تحتقر ذاتها وتفرض على نفسها التبعية الثقافية، وإن عدم التصدي لمحاولات النيل من لغتنا الأم، واعتبارها معركة مصيرية، هو بحدّ ذاته مشاركة مباشرة في وأد اللغة العربية وإلغائها من الوجود.

ج- **اللغة العربية ووسائل الاتصال الحديثة:** في الماضي كان الإنسان يتصل بالآخرين ويختلط بهم حين يلقاهم أو بواسطة الأماكن العامة أو الخاصة التي كانوا يردونها لا أكثر من ذلك، أما الآن فإنه يلتقي بمن يشاركه في اللغة أنى شاء، ويستطيع أن يتصل بمن شاء من الفصحاء أو الأدباء أو غيرهم كلما أراد. إن لم يقصدهم قصدوه، وأن لم يزرهم زاروه. لقد تم اختراع الكثير من الأجهزة التي تكفل اتصال الإنسان بالإنسان عن بعد وعن قرب مثل جهاز تسجيل الصوت والمذياع والتلفاز والسينما والتلفون والحاسب الآلي والانترنيت وغيرها، فيمكن اعتبار جميع الأجهزة والأدوات السمعية والبصرية، التي ابتكرها الإنسان حتى يومنا الحاضر ومن ضمنها وسائل الاعلام الداخلي والخارجي، أجهزة التعليم والتقنيات التربوية التقليدية والالكترونية الحديثة، كلها وسائل للاتصال والتعامل والاختلاط الاجتماعي غير المباشر.

عن طريق الأجهزة والأدوات الآنفة، يتواصل الناس ويتبادلون الآراء والخبرات، وينقل بعضهم إلى بعض المعارف والأفكار، وتلتقي ألسنتهم وعقولهم وثقافاتهم وحضاراتهم على اختلافها وتباعد أماكنهم، فبواسطة الشاشة التلفزيونية أو الالكترونية الصغيرة أو الشاشة السينمائية الكبيرة مثلًا يرى ويسمع الإنسان مجموعات من أبناء جنسه ويتفاعل معهم، ينفعل ويتجاوب ويتأثر بما يقولون أو يفعلون وإن لم يشاهدهم أو يختلط بهم حقيقة، وإذا لم يكن هناك تحاور فعلي وفوري من الطرفين بالنسبة للتلفزيون والفيديو والراديو، فإن التحاور الفعلي الفوري يمكن أن يحصل عن طريق التلفون والانترنيت. وهكذا فإن الاختلاط الاجتماعي يحدث بشكل أو بآخر بواسطة هذه الأدوات، ومن خلال هذا الاختلاط يكتسب الإنسان من أبناء جنسه ومن غيرهم المعارف والفنون، كما يكتسب الصيغ والألفاظ والتراكيب ويطور مهاراته اللغوية عامة.

عن طريق هذه الأجهزة يلتقي الإنسان بغيره أو بفئة متميزة من أبناء قومه ويسمع حوارهم ويصغي لأحاديثهم أنى طلب أو

رغب، فيلتقط ذهنه وتختزن ذاكرته من تراكيب وألفاظ لغتهم على قدر إصغائه إليهم وبمقدار ما يمتلك من فطنة ونباهة ومقدرة على الربط والتمييز والحفظ والمحاكاة والتقليد، ثم على مقدار ما يتمتع به المتحدثون أنفسهم من فصاحة وطلاقة في التفكير والتعبير، وما لديهم من قدرة على التوصيل والتلقين، وما يصاحب سياق كلامهم من شرح وتفسير وتصوير تجسد به عباراتهم فتجعلها قريبة من النفوس عالقة في الأذهان.

إن هذه الأجهزة أصبحت في متناول السواد الأعظم من الناس، القريب والبعيد، الفقير والغني، القادر والعاجز، ويأنس بها الكبير والصغير، الأعمى والبصير، القارىء والأمي، فأصبحت هذه الأجهزة عند الكثير بمثابة القرين الذي لا يكاد يفارق أو يبتعد، وبواسطتها يطغى اتصال الإنسان بأبناء جنسه على اتصاله المباشر بهم، لكن الخوف من ما يطرأ من آثار سلبية على اللغة من جراء سوء استخدام هذه الأجهزة أو التعامل معها، يقول اللغوي العربي عبد القادر المغربي عن الراديو مشيدًا بدور هذا الجهاز في نشر اللغة: "إن (الراديو) أصبح اليوم أعظم تلك الوسائل أثرًا في نشر اللغة: فإن إصغاء الجمهور إليه، واهتمامهم بتفهم أخباره وتداول تلك الأخبار بينهم، يحكيها بعضهم إلى بعض ويرويها بعضهم عن بعض، كل ذلك يجعل صورة كلمات اللغة ترسخ في أذهانهم على الوجه الذي سمعوه: فإن سمعوا الكلمات صوابًا حفظوها وردوها صوابًا وإلا دعوها وأدوها خطأ"[18]، لكن الآن وبعد أن ظهر ما يفوق الراديو من وسائل الاتصال بمئات المرات من الأهمية في نشر الثقافة ونشر اللغة، منها التلفاز الذي يبثّ في كل الأقطار العربية، بفضل الأقمار الصناعية، بحيث أصبح بالإمكان استقبال قنوات تلفزيونية متعددة من عدة جهات أو من عدة أقطار، فيستغل كوسيلة التثقيف اللغوي على المستوى الاقليمي وليس على المستوى المحلي فقط.

ففي التلفاز تشترك الصورة والصوت والنغم والحركة في توصيل المعلومات، ويشترك المشاهد وبصره في التقاط هذه المعلومات، التي يترتب عليها آثار سلبية في نقل ألفاظ اللغة وتراكيبها وعباراتها بصورة خاطئة، لذلك من الضروري الاهتمام بنوع ما يُقدّم للجمهور عبر هذا الجهاز، والتشديد في انتقاء الطاقم البشري الذي يديره ويعد وينفذ برامجه ويقدم مواده والتأكيد على توصيل ما يقدم من خلاله بلغة فصيحة نقية ثرية وسلسلة عذبة ملائمة للجمهور بجميع مستوياته وطبقاته وأصنافه.

إن الطفل في سنواته الأولى يكتسب الكثير من المفردات اللغوية العربية الفصيحة من خلال مشاهدته لبرامج التلفاز، فإن من المؤكد أن التلفاز يشارك مشاركة فعالة في تنمية محصول الطفل من الكلمات والتعابير العربية الفصيحة، سواء ببرامج الأطفال التي تقدم باللغة الفصحى كبرنامج "افتح يا سمسم" وبعض الأغاني والأناشيد والتمثيليات العربية أو الترجمة وأفلام كارتون، أو بالبرامج التي تقدم باللغة الفصحى للكبار ويشاهدها الأطفال عَرَضًا، مثل المحاضرات

والبرامج الإخبارية وبعض البرامج العلمية والثقافية العامة. هذه بلا شك تعود على الأطفال بمحصول لغوي جيد، لا سيما إذا تهيأ لهم من يساعدهم على فهم العبارات ممن يكبرهم سنًا من أفراد أسرهم.

إلا أنه وللأسف حتى الآن اللغة المستخدمة من خلال هذه الأجهزة تكون في الغالب لغة بسيطة. وربما كانت عامية فقيرة ضعيفة المستوى، لأن هذه الأجهزة اعلامية بالدرجة الأولى - هذا بالإضافة الى كونها ترفيهية عامة تهدف إلى الامتاع والتسلية، وربما تدعي أنها مضطرة لأن تجعل لغتها مبسطة مألوفة ليفهمها المثقف وغير المثقف، المتعلم والأمي... كتب نجيب محفوظ في راوية "وجهة نظر" في جريدة الأهرام بعنوان "لغتنا والاذاعة": "من حين لآخر تثار مشكلة اللغة العربية في التلفزيون، كيف تُلقى على الناس متعثرة بأخطاء النحو والنطق، وكيف نعمل على نشر الخطأ على أوسع نطاق بقوة التلفزيون وهيمنته على الحواس والأذواق". وكتب محمود عبد المنعم مراد في مجلة "اكتوبر" بعنوان "لغتنا المسكينة": "كتبت كما كتب كثيرون غيري عن جرائم انتهاك لغتنا العربية في صحفنا ووسائل اعلامنا المسموعة والمرئية... وقد يرى البعض أن هذه مسائل شكلية غير ذات أهمية، وهنا تكمن المصيبة الكبرى، إن اهدار اللغة هو اهدار لشخصيتنا وتراثنا وثقافتنا ولواحد من أهم مقومات أمتنا، انه استهانة وعبث خطير لا يمكن أن نمل الكتابة عنه، ولفت النظر إليه"[19].

بالإضافة إلى الآثار السلبية التي تعود على اللغة العربية من خلال أجهزة الاتصال هذه، فإن للتلفزيون بصورة خاصة آثارًا سلبية على الناشىء من الناحية الصحية والسلوكية والثقافية، إذ يُجر من خلال مشاهدة الصور المثيرة ووسائل الإغراء الأخرى إلى الادمان على المشاهدة، والادمان على المشاهدة عبر جهاز التلفاز مثلًا له نتائج وخيمة العاقبة.

هذا ما ينطبق على جهاز الكمبيوتر أيضًا، لكن برغم وجود السلبيات المذكورة في هذه الأجهزة، فإنها من الممكن أن تكون أكثر فاعلية في تنمية المهارات اللغوية لدى الناشىء، وخاصة الناشىء الصغير المؤهل لتلقن اللغة، إذا كان هناك اهتمام كاف بالدور التثقيفي، وأمكن لاستخدامها لنشر اللغة العربية وتنمية ذهنية الناشئة بها، والمتلقين عامة من مفرداتها وصيغها وتراكيبها السليمة المنتقاة، وفق منهج متدرج مع المراحل والمستويات العقلية المختلفة وذلك بالتنسيق فيما بين الجهات المسؤولة (سلطات الدولة) والمؤسسات اللغوية المتخصصة.

ثالثًا: أثر العولمة في اللغة العربية

أ- اللغة العربية في الوطن العربي

ب- العولمة ومحاولات محو اللغة العربية

ج- دور المجتمع العربي في المحافظة على هوية اللغة العربية

تتعرض اللغة العربية في عالمنا العربي لمجموعة من المؤثرات والعوامل التي أدّت إلى تراجع واضح في استخدامها على مستوى الدولة والمجتمع والأسرة، على الرغم

من الدور الذي تلعبه بكونها أداة اتصال غير محايدة في تحديد الهوية والخصوصية الحضارية والثقافية للأمة. ولعل ذلك التراجع ازداد تسارعًا مع حلول العولمة، وكل ما أفرزته من ظواهر تقوم في أساسها على استخدام اللغات الأجنبية، فضلًا عن تأسيس المدارس الخاصة والأجنبية في عالمنا العربي، الأمر الذي جعل من اكتساب تلك اللغات أمرًا ضروريًّا للأجيال الصاعدة باعتبارها لغة المعرفة ولغة السوق، والمؤهل الأساسي لوظيفة المستقبل.

ومن ثم تسارع الأباء والأمهات (بوعي أو دون وعي) لإكساب أطفالهم ما يؤهلهم لسوق العمل من لغات أجنبية، هي لغات القوى الصناعية الكبرى، الأمر الذي يفرض إلقاء الضوء على بعض الجوانب التي تنعكس على اللغة العربية من خلال العولمة التي فرضت ثقافة القوى ولغة القوى.

أ- **اللغة العربية في الوطن العربي:** لا أحد يجهل التراجع الكبير الذي تشهده اليوم اللغة العربية ويشهده استخدام اللغة العربية في عالمنا العربي، العولمة فرضت السوق وفرضت ثقافة القوي وفرضت لغة القوي، وبالتالي انتشرت اللغة الأجنبية في البلاد العربية، وأصبحت امتيازًا، متخطية كونها أداة معرفة مع انتشار المدارس الأجنبية في مجتمعاتنا العربية وانتشرت عادة مخاطبة الأمهات في المنازل لأطفالهن باللغة الأجنبية، وأصبحت اللغة الأجنبية هي لغة الحياة اليومية في بيوتنا وفي مكاتبنا وفي مدارسنا وفي جامعاتنا، وكل ذلك بحجة رفع مستوى النشء، لكن دون منهجية مدروسة وصحيحة مما وضع اللغة العربية في دائرة الخطر، وضُرب عليها طوق من الحصار لا سيما أن البيوت العربية تحولت إلى أشباه مدارس أجنبية. هذه ثقافة العولمة التي عمّت بلادنا يصاحبها في الغالب خطاب تقني وعلمي، ويميل إلى أن تكون ثقافة موجهة تسعى إلى تحقيق أهداف اقتصادية أو سياسية وخلق ذهنيات معينة[20]. بالمقابل نشهد ضعف قوة المنطقة العربية، وقوة العروبة، وقوة المجتمع له في تكوينه الداخلي كعلاقات إنسانية أيضًا، هذه الظاهرة ذات صلة في اللغة، لا نستطيع أن نتحدث عن اللغة منفصلة عن انهيار المشروع التنموي العربي بأكمله، وانهيار المشروع العربي التعليمي بأكمله، وجزء من عوامل الانهيار هو انحسارًا للغة العربية، ثم هذا الانهيار للمشروع التنموي بكليته في مشروع اللغة العربية، في نظريته الثقافية، في قوته العسكرية، في قوته الاقتصادية السياسية، الكينونة العربية بشكل كامل أحد أهم أعضائها التي ضعفت هو اللغة العربية.

المدارس الحكومية العربية ربما في تنافس مع المدارس الأجنبية المتزايدة في الوطن العربي، وربما أيضًا أن لا تكون هذه المدارس في مجملها أقوى أو أفضل من المدارس الحكومية التي تُعنى بالتركيز على اللغة العربية، بل ربما يكون ذلك على العكس تمامًا، إنما الأقوى هو المفهوم، إن طرح مفهوم التعليم الأجنبي بين الأسر العربية، باعتبار أن التعليم الأجنبي يرضي متطلبات السوق، وبالتالي بمجرد طرح فكرة

الربط ما بين التعليم والسوق، تحول التعليم إلى مجرد أداة سوق، لذلك ضعفت بنية المدرسة الحكومية والمدارس المهتمة باللغة العربية، ولم يعد يؤمن الإنسان العربي بما كان يؤمن به في بدايات القرن العشرين، أن المدرسة لخلق جيل واع ومثقف وتربوي فاعل في بناء الحضارة بغض النظر عن ملائمته لهذه السوق، لأن هذه السوق مفتعلة، فتحت لترضي حاجات الغرب وسياسات الغرب، وهيمنة الغرب، ونحن سرنا في هذا التيار دون وعي، بأننا نخدم الغرب لا نخدم أنفسنا، كان من الممكن أن نخلق سوقًا ملائمة للتعليم الحكومي الذي كان سائدًا، لكن إرضاء السوق الرأسمالية الغربية يعني إرضاء المؤسسات الحكومية القائمة في المنطقة العربية، وبالتالي يعني دخول الشركات الأجنبية لفتح أسواق، وبذلك نكرر تجربة تاريخية ماضية، ما قبل الحرب العالمية الأولى والثانية، حيث فرض على هذه المناطق أن تكون مجرد سوق[21]، وبالتالي لم نحوّل تعليمنا إلى ما يتطلبه السوق فحسب، إنما حوّلنا عقليتنا وذهنية الإنسان العربي وطريقة تفكيره.

إضافة إلى تنامي سطوة اللغات الأجنبية على شعوب الدول العربية، فإن خطر العولمة على اللغة العربية يزداد في ظل سيطرة اللهجات العامية على الثقافات المحلية، فرغم أن أهداف التربية في الوطن العربي هو اعتماد اللغة العربية في جميع المراحل، يبقى الخلل الذي يكمن هو العامية التي تدخل على اللغة العربية، ويغذيها أعداء العرب ويحقنونها بالمورفين الاستعماري، لإحداث الخلل والاهتزاز في بنيان اللغة العربية والأمة العربية عن طريق هدم مداميكها من الأساس من خلال هذه (الأسافين) الفتاكة ولم يتورّعوا مطلقًا عن استخدامها عبر مدارسهم الاستعمارية التي أنشئت خصيصًا لدراسة اللهجات العربية المحلية، وفي جامعاتهم أيضًا، بمساعدة بعض أبناء العرب، لم يكن اهتمام الدول الاستعمارية باللهجات العربية العامية من أجل البحث العلمي كما كانت تدّعي، ولا في سبيل إغناء اللغة العربية وتقويتها، ولا من أجل حاجتها إلى المعرفة، بل كان ذلك من أجل هدف مركزي يتمحور حول القضاء على العربية الفصيحة وإحلال العامية محلها. فقد لاقت دعوة الدول الاستعمارية نجاحًا مهمًا في البلاد العربية، إذ تجاوب ثلة من أبناء هذه البلاد للدعوة الاستعمارية، التي ساهمت في خلخلة الوعي الوطني ووجهت للأمة العربية سهامًا أليمة نذكر على سبيل المثال:

– طه حسين في كتابه "مستقبل الثقافة في مصر" وبسببه قامت معركة كبيرة بينه وبين المفكر العربي الكبير ساطع الحصري بين الفرعونية والعروبة.

– لويس عوض الذي ألف ديوان شعر بالعامية المصرية هو "بلوتو لاند".

– بيار الجميل الذي رأى في مقابلة منشورة بملف صحيفة "العمل الشهري" الكتائبية رقم 4 في شهر حزيران 1977 "أن حضارة الغرب هي حضارتنا وهذا ما يشكل جزءًا من الحقيقة اللبنانية، فعندما نقول بأن لبنان ملتقى الحضارتين الإسلامية

والمسيحية، فلا نفهم لماذا يجب أن ننسلخ عن حضارتنا لكي نؤكد انتماءنا إلى هذه المنطقة من العالم".

فطبيعي أن لا تنجو اللغة العربية من محاولات تشويهها ومسخها على أيدي رموز هكذا تيارات، وكان للشاعر سعيد عقل دور كبير في هذا المجال، عندما أنشأ مطبعة هي الأولى من نوعها في الوطن العربي لكتابة اللغة العربية بالحروف اللاتينية مع إضافة بعض الحروف إليها، بالإضافة إلى ذلك فقد عمد رفائيل نخلة إلى إصدار كتاب باللغة العامية هو "قواعد اللهجة اللبنانية السورية"، كذلك شكري الخوري وغيرهم ممن ألفوا كتبًا باللغة العامية والدعوة إليها[22].

بالعودة إلى اللغة الأجنبية التي من شأنها أن تساهم في انحصار اللغة العربية نقول: لا بأس أن نتعلم لغة أجنبية أو لغتين أجنبيتين من باب الثراء الثقافي والأدبي والمعنوي، لكن يجب أن لا يكون ذلك على حساب اللغة العربية ومكانتها، فيجب أن يكون للغة العربية الأولوية والسيادة في الاستعمال، صحيح أنه "من تعلم لغة قوم أمن شرهم"، لكن دون المساس باللغة العربية في حقولها المختلفة، البيت، المدرسة، الجامعة، يجب أن تسود اللغة العربية. هذا الطفل الذي نجهد في وطننا ومجتمعاتنا العربية في العصر الراهن في تعليمه اللغة الأجنبية، يجب علينا بداية أن نغذيه بلغته الأم من خلال استظهاره القرآن الكريم بقدر ما يستطيع، والشعر الذي يتناول الحديث عن الطبيعة والأخلاق والتربية، كي يرتوي من التعبير الجميل، ويرتوي من أسلوب اللغة العربية في أعلى درجاتها، والتي هي القرآن الكريم، الطفل الذي ندخله في هذا الخضم لا بدّ من أن يشبّ على لغة بليغة في الخطابة والكتابة وغيرهما.

لو كان هناك قوة في اتخاذ قرار نوعي بشأن التعليم، وخاصة المبني على اللغة العربية لكانت هذه القوة الآن منتشرة في كل جوانب وجسد هذا المجتمع العربي الذي وهن نتيجة وهن لغته، وثقافته، ودينه ربما، ومؤسساته التعليمية والسياسية، حتى الآن عندما يطرح علينا أي فكرة أن تأتينا الديمقراطيات من الغرب، نتيجة أن هناك رؤية غربية لنا كعرب أو كمنطقة عربية وكحضارة عربية بأنها واهنة وضعيفة ويجب أن نبثّ فيها نوع من المضادات الحيوية لإنعاشها، لإعادة الحيوية إلى هذه المنطقة من الخارج، لكن هذه المقارنة الحساسة جدًا بين المدرسة الأجنبية التي تقام اليوم أو الجامعة أو الدراسات العليا والتي تحولت كلها إلى اللغة الأجنبية، وبين المدارس الحكومية، نشير إلى أنه يجب أن يبقى على المدارس الحكومية، ويجب أن يستمر تطعيمها بميزانيات ضخمة جدًا تعادل ميزانيات المجهود العسكري في المنطقة العربية لتنهض، لأن النهوض في هذا التعليم الحكومي والعربي تحديدًا، هو نهوض سياسي قوي ونهوض عسكري ونهوض حضاري، بمعنى آخر يجب أن نعود إلى مفهوم القوة في كل حيثيات هذا المشروع العربي بشكل عام، فإذا كانت "المعركة العسكرية – تستأهل الاستنفار

والاستعداد والحشد، فإن "المعركة الفكرية – (واللغة عمودها الفقري) تستأهل الاستنفار والاستعداد والحشد بالإضافة إلى عنصر الهجوم، إذ يعدّ "عنصر الدفاع" في معركة كهذه عاملًا مقصرًا، وربما غير فاعل مطلقًا ونافيًا لصفته أيضًا.

ب- العولمة ومحاولات محو اللغة العربية: كان هناك استعمار قديم احتل معظم الدول العربية، وفرض حينها لغته بالسيطرة والهيمنة والمدافع والرصاص، الآن مع دخول مرحلة اقتصادية جديدة، وتحولات طرأت على النظام الاقتصادي العالمي الجديد، تحوّلت اللغة إلى أداة من أدوات الاختراق الثقافي لنا، إذًا لم يخرج الاستعمار، بل جاء بصورة أخرى قد تكون من دون مدافع ولا طائرات، دخلت اللغة كأداة اختراق ثقافي، بهدف النفعية الاقتصادية، وبذلك أصبحت اللغة وسيطًا غير محايد كما يقول كثير من المحللين السياسيين والاقتصاديين واللغويين، شكله ثقافي لكن هدفه اقتصادي ونفعي، وهذا ما يمكن أن يحول اللغة إلى استعمار يحاول من خلاله القيمين على العولمة بالمقابل محو لغتنا أو تشويهها ومسخها والحط من قيمتها والقضاء عليها، وهذه محاولات شعوبية بثوب جديد وبنهج جديد تسعى للإساءة إلى القرآن الكريم والإساءة إلى الأمة العربية بقصد إحداث الهزات في كيانها بغية هدمها والقضاء على كل ما تحمله من تراث وقيم وحضارة وتاريخ، كي تسهل السيطرة عليها وتوجهها في الاتجاه الذي تريده، لكننا برغم كل هذه الهجمة الشرسة التي تساق علينا بتلك الشعارات البراقة، والتي يوهمون الناس من خلالها، بأن العولمة انفتاح على الثقافات العالمية بما تشتمل عليه من قيم وأفكار وآداب وفنون، كما سوقوا للاستعمار في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر[23]، وبرغم أن التجليات الاقتصادية للعولمة أكثر وضوحًا، فإنها لا تخلو من التجليات الثقافية بكل أبعادها، برغم كل ذلك، فإن لغتنا العربية تمتلك القدرة الكبيرة جدًا في التطور، منذ القرون القديمة واستفادت من اللغات سواء من الفارسية أم من اللغات الأجنبية الأخرى وتفاعلت معها وما زال في وطننا العربي من يتصدى لمحاولات مسخ اللغة العربية ونسفها من المثقفين الوطنيين والمفكرين، تحت راية "المقاومة الثقافية" كرد طبيعي ومشروع على محاولات التغريب، ولديهم الحرص الشديد على هذه اللغة وهناك الكثير منهم من كتب بالفرنسية والانكليزية وغيرها، انطلاقًا من الانتماء إلى الهوية العربية، وتحدثوا وكافحوا أو حاوروا هذا الآخر المهيمن بلغته من أجل حضورهم، وحماية أنفسهم، ولم يذوبوا في تيارات الآخر المهيمن.

إن هذا الاختراق الثقافي والسياسي للعولمة، هو اختراق القوي، لذلك هناك قطاعات كثيرة من المجتمع المدني تستطيع أن تأخذ حيزًا هامًا، وتحمي هذه اللغة الكريمة بكل أمانة وقناعة ومسؤولية، حيث أن هناك إصرارًا من الآخر المهيمن على تسميم اللغة العربية والقضاء عليها، هذا زكي الأرسوزي يذكر أن مستشرقًا فرنسيًا ألقي محاضرة بدمشق عام 1935م، أدلى

في نهايتها بالنصيحة التالية: "إذا كنتم السوريون ترغبون في تحسين أحوالكم ونيل الاستقلال فعليكم أن تبرهنوا لفرنسا بأنكم لستم عربًا، وأنتم تبرهنون لها عن ذلك إذ حوّلتم لهجتكم العامية إلى لغة الأدب والكتابة بدلًا من الفصحى ودونتموها بالأحرف اللاتينية، وعلى قدر تقدمكم في هذا المضمار تنالون من الإستقلال".

بعد أن دخلنا عصر العولمة، نرى الطفل يذهب صباحًا إلى مدرسة أجنبية، أو خاصة تستخدم اللغة الأجنبية، ظهرًا يعود إلى المنزل غالبًا في هذا العصر لم يجد الاباء في المنزل بحكم العمل، وبالتالي ليس هناك من معين سوى مطاعم الوجبات السريعة التي لا تحمل إلا الأسماء الأجنبية، وبعد ذلك يتسمر أمام جهاز الكومبيوتر أو التلفزيون اللذين يتحدثان بمعظمهما بالأجنبية، مساءً يعود الاباء وقد يتكلمون مع أبنائهم باللغة الأجنبية، في نهاية الأسبوع قد يأخذونهم إلى أحد الملاهي والألعاب التي في معظمها أجنبية، ضمن هذه الأجواء كيف سيحافظ الطفل على لغته الأم، وبالتالي على هويته وعلى انتمائه وكل هذه الحياة التي يعيشها هذا الطفل من الصباح وحتى الليل باللغة الأجنبية؟ هذه الأمور التي ذكرت كلها من لوازم وأدوات العولمة التي تلعب دورًا مهمًا في تردي استخدام اللغة العربية، لذلك لا بد من اتخاذ بعض **الإجراءات الوقائية** لحماية هذه اللغة ومنها:

1- فرض تعليم العربية في المدارس الأجنبية، وإدخالها في برامجها بشكل كافٍ ووافر طالما أن هذه المدارس في بلادنا العربية، ولا يمكن لهم أن يرفضوا هذا الأمر.

2- تغيير المناهج إلى أن تكون مشوقة، تحبب الطفل في لغته القومية وشده إليها بالوسائل والأساليب التي تتوافق مع توجهاته وتطلعاته الذهنية والحسية والجمالية.

3- درس ومراقبة موضوع الاذاعة والتلفزيون والكتاب العربي والصحافة والسينما وإغناء هذه الوسائل بالمواد المشوقة أيضًا على اختلافها إن كانت تاريخية، أو علمية أو حديثة أو غيرها، ومما يخلق انقلاب في تقبل الطفل وفي تكوين شخصيته، فتقريب اللغة العربية إلى أطفالنا وتعلقهم بها روحيًا وعقليًّا هي من مسؤولياتنا التي لا ينبغي التخلي عنها لا سيما أن لغتنا العربية تمتلك مقومات الجمال والنغمة الموسيقية، هذا من ناحية، من ناحية ثانية، ما تملكه هذه اللغة من أحقية في الحفاظ عليها والذود عنا باعتبارها لغة القرآن الكريم، منه استمدت صفة القداسة، فضلًا عن انها سفير بين الأجيال يربط حاضرها بماضيها.

د- دور المجتمع العربي في المحافظة على هوية اللغة العربية:

مما يلزم الانتباه له أن الغرب يسعى في نشر ثقافته عبر العولمة ولديه الامكانات الهائلة في ذلك، هذا فضلًا عن القوة الحضارية التي تمثل لغاته الأجنبية وتيسر أدوات تعليمها، كما تمثلها كمحاضر ثقافي واستعماري في بلادنا، ولكن باستطاعة

المجتمع العربي بمختلف عناصره أن يولي اللغة العربية الاهتمام الكبير، من خلال حفظ القرآن الكريم مثلا، وبعض نصوص السنة النبوية ذات الطابع الأدبي، وحفظ الشعر العربي السليم وقراءته بصوت مرتفع، لأن الأذن تساعد الإنسان على أن تكون لغته سليمة، سماع الغناء والنشيد الفصيح، اللحن السليم لغة، متابعة بعض الأفلام الناطقة بلغة عربية صحيحة، الاعتماد على برامج "الكمبيوتر" الثقافية والتعليمية وغير ذلك، لا أن تبقى كما هو الحال اليوم، ندرس اللغة العربية بطرق تقليدية، وأحيانًا منفرة ومملة.

المحافظة على الهوية، والتي تعدّ اللغة من أهم دعائمها مسؤولية الإنسان، الفرد، الجماعة، الأسرة العربية بشكل عام، واضعي السياسات التربوية والثقافية، إحياء الهوية العربية ذات الجذور التاريخية والحضارية والثقافية في الذهنية والنفسية العربية هذه الهوية هي الروابط التي يتقاسمها أفراد الأمة، كاللغة والدين والقيم والعادات والتقاليد والتاريخ المشترك.

يجب أن نفكر بطريقة عربية ونكتب باللغة العربية، وأن نستعمل اللغة العربية في ما بين الشباب العربي والمجتمع العربي، حيث أن الاحساس بأهمية الهوية العربية مشكلة قائمة، لأن لغة العلم الآن هي اللغة الأجنبية، وللأسف ان معظم قطاعات العمل في بلادنا تفضل حاملي الشهادات الأجنبية، وحتى جامعاتنا تفضل حاملي الشهادات العليا الصادرة من جامعات أجنبية أكثر من الجامعات العربية، كما تفضل الأبحاث العلمية الاجنبية أو المستعمل فيها لغة أجنبية أكثر من المقدمة باللغة العربية هذا على مستوى المثقفين.

أما على مستوى الشارع العربي فإننا نجد استعمال أسماء أجنبية للأولاد، استعمال أسماء أجنبية للمحلات... الأسرة في المجتمع العربي تستطيع أن تؤدي دورًا كبيرًا في المحافظة على اللغة العربية والهوية العربية، من خلال استخدام هذه اللغة وتكريسها ضمن برامج وسياسة تربوية ومشروع تنموي بالتعاون مع دولها التي يجب أن تضع السياسات التربوية والثقافية الكفيلة بتقوية وتدعيم اللغة، وتسير مفهومًا خاصًا باللغة يحتوي فعلًا على كل مكتسبات القوة، من هنا تكون الأسرة مستخدمة لهذه اللغة ضمن مشروع حضاري كامل، وتكون فعالة في ارساء وجود هذه اللغة العربية إلى جانب اللغات الأخرى، وبالتالي مساعدة كل أسرة أبناءها في مجال العمل أو في مجال الكتابة أو في مجال السفر أو عندما نطرح موضوع تعلّم لغة أخرى إلى جانب اللغة العربية لا من باب الرفض لتعلم هذه اللغة، ولكن غير مقبول أن يتحدث الإنسان العربي اللغة العربية ويفكر بلغة أخرى، كأن يفكر بالطريقة الإنجليزية أو الفرنسية أو غيرهما، عندما تبتعد لغة التفكير عن اللغة المستخدمة يوميًا، يحدث حالة من حالات التحول في الانتماء، فالطريقة التي يجب أن يفكر بها يجب أن تكون نابعة من أصالته اللغوية والفكرية كي لا يحول حياته الأسرية إلى الحياة الأسرية الغربية مثلًا، طريقة

العلاقات الاجتماعية، القيم المستخدمة في العلاقات اليومية، كالقيم الفردية التي جاءتنا من الغرب والتي قطعت من أواصر العلاقات الجماعية في الأسرة العربية، قيم التبعية، قيم عدم الاحساس بالشعور العربي الذاتي القوي جدًا، ففي اللغة العربية تكمن قوة حضارية فلا يجب أن نخضع هذه القيم المتداولة يوميًا، كلها جزء من هذا التفكير وجزء من الكتابات المطروحة، وجزء من الصحافة اليومية، جزء من الاعلام، جزء من الثقافة المحيطة بشكل عام، فلا يجب استخدام اللغة كلسان، إنما استخدامها كعقلية وكطريقة للتفكير.

يجب أن لا نمتثل لدعوة العولمة إلى إغلاق الجانب التاريخي للإنسانية، وفتح المجال للوضع الجديد في التبلور والإبداع، لأن في ذلك تناقضًا مع الهوية العربية، على اعتبار أن التاريخ المشترك عنصر من عناصر الهوية لو قمنا بوجود هوية عربية مميزة، وعولمة جامعة للعالم، نرى أن ذلك لا يؤدي الى الإنتاج بالمعنى الشامل، مما يدفعنا أما لإتباع العولمة أو الصمود والدفاع عن هويتنا العربية.

- خلاصة

إن هذه العولمة التي تسعى إلى جرّ العالم في منهج أميركي أو غربي خاص به اقتصاديًا وسياسيًا وثقافيًا، وتربية وسلوكًا، لتحصيل الربح المادي الأكثر، هي عولمة مرفوضة، حيث أن العولمة التي لا تأخذ باعتبارها وبالدرجة الأولى مصالح الإنسان أيًا كان وإلى أي جهة انتمى، وحقوقه الخاصة لجهة تمسكه بثقافته الخاصة، ولغته الخاصة، والتجاهر بدينه الخاص... وهي عولمة غير أخلاقية غايتها الهيمنة والسيطرة على شؤون النظام العالمي وذلك بلا ريب يحمل الكثير من المشاكل والمآسي والويلات. أما العولمة التي نسعى إليها هي المنطلقة من نزعة إنسانية، وطريقة فطرية، التقويم المنحدرات والاعوجاجات وقد دعا القرآن الكريم الى ذلك بقوله: ﴿وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾[24].

هذه العولمة التي تحفظ للإنسان كرامته وثقافته ولغته ودينه، مقياس التحايز والكرامة فيها للأتقى والأقرب الى الله وخدمة الناس والسهر على مصالحهم والحرص على مقدراتهم وتراثهم المختلف، هي عولمة تستحق العمل الدؤوب والجاد لإنجاحها من هنا يجب التنبيه إلى ما تسعى إليه الثقافة الأمريكية تحت شعار العولمة ونشر الديموقراطيات، من تصدير موادها الثقافية والفكرية، والترفيهية من نشرات وكتب ومسرحيات وأفلام وبرامج إذاعية وغيرها، إلى بلادنا من أجل الهيمنة الفكرية والثقافية والعمل الجاد لسلب تراثنا ولغتنا التي هي من أهم أهداف هذه الهجمة الأمريكية والتي يعدّونها العمود الفكري للرسالة الإسلامية والتي بكسرها وتحطيم بنيانها يفرغون هذه الرسالة السمحاء من مضمونها ومحتواها كي يخلو لهم الميدان ويحققوا غاياتهم المادية الفاسدة. لكن بإذن الله ستبقى هذه اللغة وهذه الرسالة منارتان تضيئان رحاب الكون وتعمى عيون الحاقدين المريدين شرا بهما ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ

وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ (التوبة: 32).

***

الهوامش

* دكتور في كلية الآداب والعلوم الإنسانية – الجامعة اللبنانية

[1] الجابري، محمد عابد: قضايا في الفكر المعاصر، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، ط1، سنة 1997 م، ص 129

[2] الأنصاري، محمد جابر: مجلة عالم الفكر، المجلد 32، نيسان 2004

[3] عبد الخالق، عبدالله: عالم المعرفة – العالم المعاصر والصراعات الدولية، ع 133 عام 1989، ص 7

[4] الجابري، محمد عابد: قضايا في الفكر المعاصر، ص 136

[5] مجلة عالم الفكر، العدد 23، نيسان 2004، ص 61

[6] حامي، محمد رؤوف: مجلة سطور، ع41، نيسان 2000

[7] مجلة عالم الفكر، مجلد 32 نيسان، 2004

[8] قباني، نزار: قصتي مع الشعر

[9] علي نبيل، العرب وعصر المعلومات، مجلة عالم المعرفة ع 184، ص 338

[10] بروكلمان، موجز في علم اللغات السامية "بالفرنسية"، ص 24 - 41

[11] علي، نبيل: العرب وعصر المعلومات، مجلة عالم المعرفة، ع 184، عام 1994، ص 337

[12] غرازي علي غرازي، مجلة سطور، ع 41، 2000، ص 30

[13] شوبي، إيلي: مقالة له في مجلة الشرق الأوسط، 1951، تأثير اللغة العربية في نفسية العرب

[14] السامرائي، ابراهيم: الفعل: زمانه وأبنيته، ص 23

[15] الطلي، مالك: الزمن واللغة، ص 87

[16] حامد حمد، عبدالله: فرضية الحتمية اللغوية، مجلة عالم الفكر، ع 3، عام 2000، ص 15

[17] حامد حمد، عبدالله: فرضية الخدمية الغربية، عالم الفكر

[18] المعتوق، أحمد: الأسد، الحصيلة اللغوية، مجلة عالم المعرفة، ع 312، 1991.

[19] المعتوق، أحمد: 13 الحصيلة القوية، مجلة عالم المعرفة

[20] زايد، أحمد: عولمة الحداثة، وتفكيك الثقافات الوطنية، عالم الفكر، ع 1، 2003

[21] عندما بدأت أشكال الاستعمالات المختلفة في تاريخنا العربي

[22] زهر الدين، صالح: لغة الضاد، مجلة الفكر العربي، ع 31، 1990، ص 96.

[23] تركي، مصطفى: عالم الفكر، نيسان 2004، ص 84

[24] سورة الحجرات: 13

***

مكتبة البحث

- القرآن الكريم

1. الأرسوزي، زكي، المؤلفات الكاملة، المجلد الثالث، دمشق، 1974.
2. تركي، مصطفى، الجوانب النفسية للحدود، مجلة عالم الفكر، مجلد 32، عام 3004.
3. الجابري، محمد عابد، قضايا في الفكر المعاصر، ط1، لات
4. حامد، محمد رؤوف، من يرضع حلمة العولمة، مجلد32، عام 2000م.
5. حمد، عبدالله حامد، فرضية الخميني اللغوية واللغة العربية، بمجلة عالم الفكر، مجلد 38، عام 200م.
6. زايد، أحمد، عولمة الحداثة وتفكيك الثقافات الوطنية، مجلة عالم الفكر، مجلد 32، عام 2003
7. زهر الدين، صالح، لغة الضاد، مجلة الفكر العربي، عدد 61، عام 1990 م
8. الشيرازي محمد الحسيني، فقه العولمة، ط1، بيروت عام 2002.
9. عبد الخالق، عبدالله: العالم المعاصر والصراعات الدولية، عالم المعرفة، عدد 133، عام 1989 م.
10. علي الفرا، محمد، العولمة والحدود مجلة عالم الفكر، مجلد 32، عام 2004.
11. قباني، نزار، قصتي مع الشعر.
12. المعتوق، أحمد، الحصيلة اللغوية، عالم المعرفة، عدد 212، عام 1996 م.
13. نبيل، علي: العرب وعصر المعلومات، عالم المعرفة، عدد 184، عام 1994 م

***